العدد (1612) السنة السابعة - السبت (26) أيلول 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

هل سبب تيهنا الآن جدل العلاقة بين القومية والإسلام؟

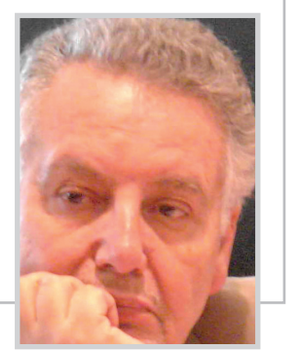

قبل الخوض في جدل العلاقة بين الإسلام والقومية، دعونا نسترجع، ما قاله ساطع الحصري المفكر القومي اليمني/العراقي، و(فيلسوف القومية العربية) في محاضرة ألقاها في عام ١٩٤٨، حيث يقول:

"أظن أن كل من يقارن بين أحوال العالم العربي الآن وبين الأطوار التي مرّت بها بعض الأقطار، يضطر إلى التسليم، بأن فكرة "القومية العربية" لا تزال في حالة نزاع وكفاح مع النزعات الإقليمية. إنها لم تتغلب على تلك النزعات، ولكنها لم تستسلم لها، ولم تكف عن مصارعتها ومكافحتها ("محاضرات في نشوء الفكرة القومية"، ص ١٧٠).

شاكر النابلسي

فهل ينطبق هذا الكلام الذي قيل قبل أكثر من نصف قرن على واقعنا الحالي، ونحن على عتبات القرن الحادي والعشرين، وكأن لا شيء قد تغير فينا حتى الآن، بل ازددنا إقليمية وتعصباً عما كنا عليه في النصف الثاني من القرن العشرين؟

إن القارئ الذكي يدرك أن الحصري كان صادقا، ولكنه كان متفائلاً كثيراً، حين أكد أن الحركة القومية لن تستسلم، ولن تكفّ عن المصارعة والمكافحة في معركتها مع النزعات الإقليمية. ولكن ما شهدناه في نهايات هذا القرن، قد خيّب آمال الحصري فينا وفي حركة القومية العربية ودعاتها وطوائفها وعشائرها المنتشرة في أنحاء الوطن العربي، والتي يدافع كل منها عن ماء القبيلة وحدودها، والذي عبَّر عنه الشاعر العراقي المعاصر عبد الوهاب البياتي (١٩٢٦-١٩٩٩) بقوله في ديوانه (عيون الكلاب الميتة، ص ٢٣):

طحنتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات
والسيوف الخشبية
والأكاذيب وفرسان الهواء
شغلتنا التُرهات
فقتلنا بعضنا بعضاً وها نحن فتات

جدل العلاقة بين القومية والإسلام

ظلت العلاقة بين الإسلام وبين القومية العربية لدى معظم المفكرين العرب ملتبسة وغامضة وغير محددة الملامح منذ نهايات القرن التاسع عشر عندما ظهرت أولى بواكير الدعوة القومية وإلى الآن.

فمن الصعب أن نعزل الإسلام عن الحركة القومية. ومن هنا كان الإسلام في فكر بعض القوميين يحتل المرتبة الرابعة من عناصر التكوين القومي بعد الجغرافيا واللغة والتاريخ. في حين اعتبر مفكر وسطي توفيقي كحازم نسيبه أن الإسلام ركن أساسي من أركان بناء الدولة والتاريخ القومي والحضارة كذلك. وقال المفكر الفلسطيني/السوري فايز صايغ (١٩٢٢-١٩٨٠) مردداً صدى أقوال المؤرخ والمستشرق الإنجليزي جب Gibb من أن المسلم وغير المسلم لا يمكنه أن يخطئ إدراك ومعرفة أن البعث القومي كان مع ظهور الإسلام. وأن الإسلام رسَّخ تلك الحضارة التي بناها العرب في العصر الذهبي. كما أن الإسلام هو الذي شكّل الحياة العربية الآن بجميع أبعادها. وقد أقر صايغ بأن دور الإسلام في الحياة العربية يمثل جذر وأصل القومية العربية والحضارة العربية. كما أن الإسلام يمثل رؤية العرب إلى العالم وإلى الحياة. ولكن صايغ أدرك أن الدعوة القومية في العصر الحديث لم تنشأ بفضل الإسلام ولكنها نشأت بفضل القيم والأفكار العَلْمانية الغربية.

إلا أن بعض المفكرين في هذا العصر عادوا وربطوا الفكرة القومية بالإسلام من جديد كما كان الشأن في الماضي. وقال بعض المفكرين في هذا العصر أن القومية العربية قد نشأت مع بزوغ فجر الإسلام، حيث ظهر الإسلام عن طريق نبي عربي، بلسان عربي، وعلى أرض عربية.

لماذا التوفيق والربط بين الإسلام والقومية؟

كانت لمحاولة عدد من المفكرين العرب التوفيق والربط بين الإسلام والقومية في هذا العصر أسباب عدة منها:

١. الارتباط التاريخي بين الإسلام الذي كرّس سيادة قريش كقوم دون غيرهم، وحصر الزعامة السياسية في أبنائها. وقد تمّ لقريش ذلك، فحكم أبناؤها من خلال الدولة الراشدية والدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية ما يقارب ألف عام. وكان بين الإسلام والقومية تماثل وتقاطع وتكافل خلال هذه الفترة. وظلت زعامة قريش بعد ذلك -كرمز للقومية- في الوعي القومي العربي سائدة على مر التاريخ العربي وحتى العصر الحديث، حيث كان يناجيها مفكرو عصر النهضة من حين لآخر، ومنهم عبد الرحمن الكواكبي الذي كان يردد في مطلع هذا القرن بحماسة شديدة:

"إني أحب العثمانيين للطف شمائلهم، ويقظة الشعائر الدينية. ولكن النصيحة للدين تستلزم قول الحق، وعندي أن آل عثمان العظام أنفسهم إذا تدبروا، لا يجدون وسيلة لتجديد حياتهم السياسية أفضل من اجتماعهم مع غيرهم على خليفة قرشي." (الأعمال الكاملة، ٣١٥).

وكان الكواكبي قد قال من قبل، ومن بعد:

"أن كتب الفقه الأساسية تذكر أن من بين شروط الخلافة النسب القرشي" (أم القرى، ص ٢٠٦).

وقد التقط الهاشميون في بلاد الشام والعراق والعلويون في المغرب الذين يعتبرون أنفسهم من قريش ومن آل البيت، مقولة الكواكبي هذه، وتمسكوا بها، ونادوا بها، وكتبوا عنها، بأن ربطوا ربطاً محكماً بين العروبة والإسلام لهذا الغرض، ولتحقيق المُلك العضوض الذي قال به معاوية بن أبي سفيان (٦٠٣-٦٨٠). فالملك عبد الله بن الحسين الأول (١٨٨٢-١٩٥١) ملك الأردن يكتب قائلاً:

إن أول مبدأ لحياة العرب السياسية الرضوخ للقرآن والسنّة.

كذلك ربط نوري السعيد (١٨٨٨-١٩٥٨) رئيس وزراء العراق الهاشمي في "الكتاب الأزرق" القومية العربية بشعور الأخوة الإسلامية، كما يقول المؤرخ المعروف البرت حوراني ("الفكر العربي في عصر النهضة"، ص ٣٥٥).

٢. زادت اللغة العربية والتي تعتبر لغة الإسلام وعباداته وكتابه من خصوصية العلاقة بين الإسلام والقومية العربية. واللغة العربية هي أول العناصر المكونة للقومية العربية كما أجمع بذلك المفكرون القوميون من جمال الدين الأفغاني إلى ساطع الحصري، استناداً إلى الحديث النبوي: "من أحب الله ورسوله، فقد أحب العرب ولغتهم العربية.(عبد القادر زبادية وآخرون، ندوة القومية العربية والإسلام، ص١١٤).

٣. ومما يزيد من متانة العلاقة بين الإسلام والقومية على مرّ التاريخ أن مخاوف الإسلاميين من القوميين لم تظهر حقيقة إلا في بداية الربع الثاني من القرن العشرين، وبعد قيام الثورة التركية في عام ١٩٢٣ بقيادة كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨) وإلغاء الخلافة العثمانية في ١٩٢٤، وبناء الدولة العَلْمانية، والمغالاة الشديدة في فصل الدين عن الدولة، وكبت الدين ومعاداته، وإيقاف الحج، وتحويل المساجد إلى متاحف وثكنات عسكرية، ومنع نشر الكتب والمجلات الإسلامية. وهذا النوع من "العَلْمانية التركية" الخاصة بتركيا وحدها، والتي لم تحدث في أي بلد أوروبي، أفزعت باقي المسلمين في العالم الإسلامي والعالم العربي من الدعوة القومية والدعوة العَلْمانية، التي تلتحف بها. وأصبحت العَلْمانية التي يدعو لها المفكرون القوميون العرب في خيال المفكرين الإسلاميين من ليبراليين وسلفيين هي العَلْمانية، التي أتى بها أتاتورك من خلال القومية التركية الطولونية، والتي تصرفت نحو الإسلام والمسلمين تصرفاً متطرفاً، وقاسياً، وشرساً.

أمامخاوف القوميين من الإسلاميين واصطدامهم الأيديولوجي معهم فلم يحدث إلا في النصف الثاني من القرن العشرين عندما اشتدت سطوة الجماعات الإسلامية والفرق الدينية المختلفة بدءاً من الإخوان المسلمين وانتهاءً بجماعة التكفير والهجرة. وكان من الواضح أن سبب هذا الخلاف الحاد بين القوميين والمتأسلمين في جميع قضايا الفكر المطروحة على الساحة العربية هو الصراع على السيادة السياسية.. وقد بدأ هذا الصراع عندما دخل الإخوان المسلمون الميدان السياسي صراحة وتحولوا من دُعاة دين إلى طلاب سياسة، بدءاً من عام ١٩٣٨ ، عندما أسس حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) جريدة "النذير" الأسبوعية السياسية، وترشح في عام ١٩٤٢ لخوض الانتخابات النيابية المصرية، ثم انسحب بناء على رفض رئيس الوزراء مصطفى النحاس آنذاك أن يتحول "الإخوان المسلمون" إلى السياسة. وطلب منهم أن يبقوا في حدود الدعوة الدينية. واستمر تكالب الإخوان على الكراسي السياسية في الجزائر، وتونس، ومصر، وسوريا، وآخرها في الأردن، عندما اشترط "الإخوان" تسلم حقائب وزارية أساسية كالتربية والتعليم والخارجية والإعلام والمالية، ما دعا الحكومة الأردنية في نهاية عام ١٩٩٩ ، إلى التفكير جدياً بتحويل "جماعة الإخوان المسلمين" من جمعية اجتماعية دينية إلى حزب سياسي رسمي مرخص به حتى يُحاسب محاسبة الأحزاب المعارضة أمام القانون، وهو ما ترفضه الحكومة المصرية، رغم طلب "جماعة الإخوان" هناك بالترخيص لهم عدة مرات.

٤- وفي الربع الأول من القرن العشرين وبعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ١٩٢٣، وتقسيم كعكة العالم العربي بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أصبح الدين من جديد قوة قومية في مواجهة الاستعمار الغربي، وتداخلت مفاهيم القومية والدين ببعضها، وكوّنت لحُمة واحدة، واستمر هذا التداخل حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين.

وفي القرن العشرين، وفي مرحلة (١٩٧١-١٩٨١) كان بعض المفكرين العَلْمانيين الليبراليين ومنهم السيّد ياسين يقولون بأن الرابطة القومية هي أقوى الروابط الاجتماعية. وأن الأديان مهما كان تأثيرها - سلبياً أو إيجابياً - فإنها لا تستطيع أن تزيل الفوارق بين الأقوام إلا بمقدار ما تُسهم به من تقوية في هذه الروابط وتأكيد أولويتها على غيرها من المبادئ. ويقولون أن تاريخ العرب سابق على الإسلام، ومن ثمّ فإن العرب متميزون عن المسلمين.

وهذه النظرة العَلْمانية الليبرالية للدين بمقابلة النظرة للقومية، كانت هي نفسها نظرة بعض السياسيين والمفكرين القوميين من قبل أيضاً، ولم تكن جديدة على هذا العصر.

ففي مطلع القرن العشرين، وقف الملك فيصل بن الحسين (١٨٨٥-١٩٣٣) ملك سوريا في عام ١٩١٩ يقول:

"نحن عرب قبل أن نكون مسلمين، ومحمد عربي قبل أن يكون نبياً."

وردد أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) من ورائه في عام ١٩٣٨ المنطق نفسه:

إن العرب تواجدوا قبل الإسلام والمسيحية.. ويجب أن يعرف المسيحيون والمسلمون ذلك جيداً.. إن العروبة قبل وفوق كل شيء.

وقبل ذلك كان جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) قد قال:

الأمة العربية هي "عرب" قبل كل دين ومذهب. (الأعمال الكاملة، ص ٣١٣).

وزاد الأفغاني على ذلك بقوله كلاماً أكثر خطورة مما سبق، بحيث أن ساطع الحصري - ناقل هذا الكلام ومترجمه عن الفارسية - قال بأن القراء سوف يصدمون بهذا الكلام خاصة، وأنهم يعلمون بأن قائله كان من كبار دُعاة "الوحدة الإسلامية" وأن موقفه المعادي للرابطة القومية كان من الحجج والدعامات التي يستند إليها أعداء الفكرة القومية ودُعاة الوحدة الإسلامية وعلى رأسهم "جماعة الإخوان المسلمين" ومفكريهم ومجموعة من المفكرين الإسلاميين كمحمد عمارة، وخالد محمد خالد وغيرهما.

يقول الأفغاني:

"إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان: وحدة اللغة ووحدة الدين. وحدة اللغة هي الأساس الذي تقوم عليه الجنسية. اللغة أشد ثباتاً وأكثر دواماً من الدين. إن تأثير سلطة اللغة في هذه الدنيا أقوى من تأثير رابطة الدين." (جمال الدين الأفغاني في مقال له بالفارسية نقلاً عن ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٦٣).

وإذا كان المؤرخ اللبناني أمين الريحاني قد انطلق فيما سبق من مسيحيته ليقول بعلو مفهوم القومية العربية على الأديان، فإن مفكراً كالشيخ اللبناني عبد الله العلايلي يردد الكلام نفسه، وبجرأة قد لا تتوفر في الإسلاميين الليبراليين هذه الأيام، فيقول عن علاقة الإسلام بالقومية بأن القومية "دين العرب" وحيث أن بيئة العرب عكست تيار القومية وعُمقه، فإن الإسلام لا بُدَّ من أن يتمشّى مع القومية العربية.

ولم تكُ حماسة باقي المفكرين القوميين الشوام المسيحيين أمثال قسطنطين زريق وخليل اسكندر، ومن بعدهم ميشيل عفلق، في ربط الإسلام بالحركة القومية بأقل من حماسة الريحاني والعلايلي.

قراءة ميتانقدية لعصر النيتوقراطية

د. نهى الدرويش

فيما كان التارخ سابقا يسير باتجاه تلقائي وعفوي، تشكل قصص منجزات الانسان فيه المادة الاساسية، ويتدخل فيه العقل الانساني، فمرة يسردويروي، ومرة اخرى يحلل وينقد، وفي كل هذا وذاك كان العقل المؤرخ سواء كان راويا او محللا ناقدا يسقط على التاريخ ادراكا فرديا او شخصانيا تارة وتارة اخرى زمكانيا واخرى ايديولوجيا، ولاجل ذلك قامت حركات علمية تطالب بالتشدد بانتهاج الموضوعية في كتابة التاريخ اوسرده،

عن طريق احكام علمية منهج البحث التاريخي، وحركات اخرى تطالب بإعادة كتابة التاريخ لخفض الشك في رواية احداثه ومنطقية اسباب الحوادث تحت شعار التحقيق العلمي التاريخي وتضمن هذا كما هائلا من التحقيقات الجنائية في الحوادث التاريخية بالاستعانة بعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها، وتارة اخرى حركات تدعو لصناعة التاريخ حاضرا ومستقبلا، وذلك من خلال التخطيط المسبق ورسم خارطة الاحداث المستقبلية وتوجيهها بحسب الاهداف الموضوعة سلفا، واعتمادا على هذا انطلق التخطيط في الاقتصاد والسياسة الدولية راسما خارطة لطريق التاريخ نحو الهدف العام المستقبلي لذا فقد اصبح كل شيء قيد التخطيط المسبق، ومن هنا تبدأ حكاية "هندسة المستقبل".

في النصف الاول من القرن الماضي انطلق مؤتمر عالمي لعلوم المستقبل يعقد كل عشر سنوات ويشارك فيه نخبة من العلماء من كل الاختصاصات وكتاب قصة مبدعون ومخرجون سينمائيون واصحاب رؤوس اموال صناعية وتجارية احتكارية كبرى فضلا عن شخصيات علمية وفنية مبدعة اخرى، وواحدة من محاور هذا المؤتمر هو ان يقدم فيه المبدع والقاص (في مجال الخيال العلمي خاصة) افكارا مبدعة عن تقنية ما وكيفية تصورها وآلياتها وجدواها، ثم يقدم العلماء امكانية تنفيذها واقعيا خلال السنوات العشر القادمة فضلا عن كلفة ميزانيتها المالية، فيما يقدم اصحاب رؤوس الاموال عروضا لتحقيقها عمليا من خلال تقديم الدعم المالي لتحقيق هذه الفكرة الخيالية على ارض الواقع مقابل احتكارها، وهكذا يمكن انتاج الفكرة المبدعة على شكل فيلم من الخيال العلمي، اذ تتضافر جهود علمية وفنية وفلسفية من مختلف الاختصاصات لإنتاج قصة وسيناريو فيلم من هذا النوع، هكذا تكونت مجاميع يمكن وصف اهدافها باعادة انتاج الافكار بنسق تكاملي، اذ بسبب التوجه نحو التخصص الدقيق صار لزاما من اجل انتاج فكرة عامة ان تتضافر جهود من اختصاصات مختلفة لانتاج هذه الفكرة بشكلها العام والكبير والمتكامل نسبيا مع السعي المستمر لتطوير الفكرة من اجل منح قولبتها وجمودها التاريخي. هذه المجاميع هي التي استهدفت هندسة المستقبل ولاقت قبولا واستحسانا ودعما من قبل تيارات سياسية فلسفية ورأسمالية، فظهر ما يسمى بتيار هندسة المستقبل التي تلغي فكرة العفوية والتلقائية في سير الاحداث لكونها ستصبح تاريخية، وادخال فكرة القصدية من خلال التخطيط والسترجة لرسم خارطة المستقبل عن طريق تصنيع الاحداث للوصول الى حقبة تاريخية اجتماعية جديدة ترسم قوانينها التاريخية مسبقا ومن شأنها ان تحدث تغييرا جذريا في طرق ومبادئ تفكير وسلوك البشر وتنتج اقتصادا وسياسة وتنشئة وتعليماً على نحو مختلف كليا عما عرفه التاريخ لحد الآن. وما الرأسمالية والديموقراطية الا تكتيك مرحلي للوصول الى هذه الحقبة من التاريخ المستقبلي، وما فكرة العولمة الا وعاء لتحضيرها، وهذا ما يعنيه مصطلح النيتوقراطية فلسفيا اذ هي: المستقبل الرقمي للمعلومة واعادة توزيع مراكز القوة في الهرم الاقتصادي العالمي، اعتماداً على علوم الهندسة المعلوماتية وبرامج صناعة التاريخ (فقد دخلت الهندسة في كل شيء: هندسة التفكير، هندسة السلوك، الهندسة الوراثية، هندسة التعليم والتربية، الهندسة السياسية، هندسة الاديان، الهندسة الاجتماعية.... الخ) .فما هي المعلومة الرقمية؟

لقد حدث التطور الدرامي للمعلومة عبر الاعتماد على الرياضيات وتحويل كل شيء الى معادلة رقمية سواء كان معادلة علمية او كيميائية او حتى نشيد اطفال، وبذلك صار مصطلح" المعلومة" يعبر عن منتج ما قابل للتسويق لمختلف مناحي الحياة، وصار الاقتصاد يعتمد على بيع المعلومة لذا اهتمت تكنلوجيا المعلومات بالتسلية والاعلام والسلعة الجديدة، وهكذا ضعف دور مؤسسات المجتمع الرأسمالي السياسية والاعلامية والتعليمية، وصارت حرية التجارة وانتقال رؤوس الاموال لا معنى لها مع تزايد التجارة الالكترونية الواقعة تحت سيطرة النخب المتحكمة بشبكات الاتصال والمعلومات (النيتوقراطيون). ولم يعد بيع المعلومة او حتى تحويلها لمورد دخل مالي امرا مجديا، فالنيتوقراطية تحقق نوعا من الاستثمار او الاستهلاك غير الاستغلالي، وفي هذا تجاوز لمبدأ الاقتصاد الرأسمالي ودخول الى مرحلة الميتارأسمالية، وهؤلاء النيتوقراط قد يقررون الاستفادة من معلومة خاصة لمصلحتهم ومصلحة شبكتهم او حتى متعتهم وفائدتهم الخاصة حصرياً، على ان يتم تبادل هذه المعلومة في اطار نخبة ضيقة من النيتوقراط وضمن شبكتهم الخاصة، وهذا ما سيدفع بالافراد الانكياء الى محاولات شتى بدخول نطاق شبكات هذه النخبة.

(في ضوء نظرية صراع الطبقات) ولكن هيهات، فهؤلاء النيتوقراط يحددون مسبقاً مشاركة الفرد الذي سيدخل نطاق شبكاتهم من خلال الاشتراك بها حصريا على من يوجد معلومة تستحق انتباها معيناً لقيمتها الكبرى في بناء الشبكات، ومدى بقائه في هذا الموقع رهناً بإيجاده معلومات انتباهية جديدة او باحتمال ان يقدم الجديد منها، ويطلق على هؤلاء الافراد اسم الانتباهيون (Attentionnalism) ولاجل هذا قامت ثورة صناعة الذكاء وصممت برامج التفكير لصناعة العباقرة ورفعت شعارات سباق التسلح المعلوماتي وهندسة التفكير، واذا كان عصرنا الحالي هو عصر المعلوماتية فالعصر القادم هو عصر الانتباهية، واذا كان عصرنا الحالي هو عصر الديموقراطية، فالعصر القادم هو عصر الميتاديموقراطية.

اما الدخول الى مرحلة الميتاديموقراطية فهو ليس كما يعتقد البعض بسذاجة انه بالرجوع الى الاشتراكية او الدكتاتورية السياسية المتسلطة، فالنيتوقراطية تقدم اشهى التطبيقات الفلسفية للجميع دون استثناء وبحسب الحاجة والطلب، فالاشتراكية تم عرضها كمشاركة جماعية وتطوعية، والدكتاتورية المتسلطة اندست في احضان الفردية الاحتكارية المتاحة للجميع، وحتى الشيوعية تمثلت في قرية كونية صغيرة ولكن كل هذا (وهو المهم) سيكون في اطار الميتامعلوماتية وضمن التوجه النيتوقراطي الذي يلغي حقل السياسة بين الشعب والفئة الحاكمة بكل وجوهها اي نقل الديموقراطية الى ميتاديموقراطية وهذا يعني حكم الشعب لنفسه مباشرة دون الحاجة الى ممثلين او وسطاء ينتخبهم الشعب - هذه الفكرة التي كانت مستحيلة ولا تزال ستصبح ممكنة مستقبلاً - وبهذا يمكن الغاء سلطة الحكومة (فالشعب هنا يحكم نفسه بنفسه مباشرة) وسيكون التمثيل النيابي بلا معنى (فكل فرد سيمثل نفسه احتكارياً) كما سيتم إلغاء فكرة الدولة بوصف العالم قرية صغيرة ستسير بموجب النيتوقراطية من التعددية الى الوحدوية، فالنظام الديموقراطي قائم على التعددية ومرتبط بتطور دولة المواطنة، وهذه الدولة ستأخذ بالتحلل لعوامل عدة منها ان الحدود الطبيعية للحماية العسكرية تتهاوى امام تغير معطيات الدفاع العسكري، والاعلام الذي كانت تقوده الدول لتعبئة شعوبها ضد شعوب اخرى، سقط بفعل الفضائيات ووسائل الاتصال العالمية، وصارت الجماعات الاثنية والقومية المتنوعة والجماعات ذات الاهتمامات المشتركة في دول شتى تقيم عالمها عبر شبكات الاتصالات العنكبوتية على حساب التفاعل مع مجتمعاتها المحلية دون الحاجة للعودة الى مؤسسات الدولة او عبرها.

ولعل اقسى تجاوز تطبيقي على مستوى الصعيد الاجتماعي والفلسفي للديموقراطية سيكون من خلال محورين:

المحور الاول هو مؤسسات المجتمع المدني اذ ان هذه المؤسسات ستتحول الى ما يسمى "جماعات المصالح الخاصة" و ان هذه المؤسسات تلعب دوراً مهماً في النظام الديموقراطي فهي تدفع بمصالح المجتمع الى الامام وتجبر السياسيين على تبني وجهات نظرهم بوصفهم مجاميع شعبية تمتلك القوة والتنظيم، الا ان هذه المؤسسات في النظام النيتوقراطي ستتمركز على ذاتها من خلال اعتمادها وسائل الاتصال وتكنلوجيا المعلومات الحديثة وستدفع بمصالحها الخاصة الى الامام وتجبر السياسيين على تبني وجهات نظرهم وتضغط على البرلمان من اجل ذلك بغض النظر عن مواقف قطاعات اجتماعية اخرى، وهذا سيتيح الفرصة لحكم اقليات وجماعات مصالح لا حكم اغلبية، وما يؤدي الى انتعاش هذه الجماعات المنظمة في التأثير على العملية السياسية فيما يقابله تناقص في اهتمام الناس بالمشاركة في الانتخابات العامة، وهكذا يبدأ التناقص تدريجياً، وهذا علامة على فقدان الاهتمام بالنظام الديموقراطي برمته. أما المحور الثاني فسيكون من خلال مؤسسات الاعلام الجماهيري الرأسمالي، فهذه تعتمد المتعة والتشويق والتسلية ضمن خارطة الطريق المرسومة لعصر النتوقراط القادم، فقيمة المعلومة ليس بفائدتها وعائديتها ومخرجاتها وتاريخيتها بقدر صداها الآني والفوري، ولكي تحقق السبق في ذلك فهي تقدم ما تنشده اهواء ورغبات المتلقين لا عقولهم، فالاعلانات سيدة الاعلام بلا منازع، والغرائز وطرق كسب المال اكثر السلع رواجاً، والجوانب الشخصية للشخصيات العامة من سياسيين وفنانين وادباء ومبدعين ورياضيين وعلماء مادة مثيرة للاعلام تشبع نهم المتلقي اكثر من القوانين والتشريعات بل واكثر من نتاجات كل هؤلاء، وبذلك يتحول تخطيط هذه الشرائح لنتاجهم وسلوكهم نحو تسويقه كمعلومة تجارية عبر الصدى الاعلامي المتوقع له، فهم محكومون بنظرية التوقع والاحتمالات لذا تأتي السلوكات مفتعلة وغير اصيلة وفي كثير من الاحيان متنافرة فيما بينها او فيما بين سلوك حاضر وسلوك سابق، وهذا ليس خاضعاً لمنطق التطور بل لمنطق الاقناع ونظرياته في السلوك، وبهذا ستفقد الشخصية العامة اتساقها المنطقي الظاهراتي وسيكون النتاج والسلوك ليس ذا معنى لانه فاقد لشروطه الموضوعية.

ان هذين المحورين الاساسين سيؤثران في ماهية مفهوم المواطنة ومحدداتها، فالنيتوقراطية تؤمن بالمواطنة الكونية وتكسر اسطورة دولة المواطنة بجانبها العقلاني (احترام شرعية الدولة والقيادة) وبجانبها العاطفي (الدفاع عن الوطن حتى الموت لاجل سيادته) فالهوية العالمية ستكون اقوى من الهوية المحلية تبعاً للانتماء النفسي للمواطن، ذلك ان آلية روابط الاتصال المعلوماتية حلت محل الروابط القائمة على النسب والعائلة والالقاب.

اما قدرات مؤسسات الدولة في عصر النيتوقراطية فستتراجع امام شبكات الاتصال ومصالح المسيطرين عليها، فهذه الشبكات عملت على تشظي الاعلام الجماهيري المحلي، اذ هي تبيع برامجها بالشراكة وتقدم كل ما تريده المؤسسات الاعلامية بحسب اهتمام كل شريحة من المستهلكين (المتلقين) ودون الالزام بحدود الدول، ذلك ان المعلومة لا تنتقل عن طريق البر والبحر الذي تمتلك الدول حدوده، وانما تنتقل عن طريق الفضاء الذي لا يملكه الا الاقوى معلوماتياً! فالحروب التي انتجت الاستعمار واحتكار الشركات المتعددة الجنسية التي كانت ترفع عادةً "أعلام دولها وتحتاج لرعايتها والتحالف معها، اصبح كل هذا ليس ذا ضرورة مستقبلاً، فبرامج سباق التسلح والحروب والاحتكار في عصر النيتوقراطية كلها ستدخل ضمن اطار المعلوماتية وشبكات النيتوقراط، فالمعلومة هي عنصر القوة والحراك الاجتماعي داخل هرم القوة - الذي يتسق كثيراً مع هرم ماسلو للحاجات الانسانية - اذ تشكل قاعدته عامة الناس الذين سيتسمون في عصر المستقبل الرقمي بـ" الجهل الطفولي" فهم متلقون عميان لا يعرفون لماذا وكيف ومتى والى اين، لانهم لا يتمتعون بعقل ناقد ولا ذكاء لصناعة التغيير في هرم عملاق له اسس بنيوية تاريخية وثقافية تجاوزت الحداثة الى الميتاحداثة وتجاوزت العالمية والعولمة الى الميتاعولمة، فالتغيير هذا يتطلب ارداة ذكية مستمرة لاجيال طويلة لا تعتمد الشعارات بل التطبيق الفعلي والعلمي لخطط موضوعة الاهداف مسبقاً، وهذه السترجة لا يمتلكها الاطفال لانهم بنيوياً اطفال، وهم يشكلون اوسع قاعدة عددياً واضعفها نوعياً فهم المستهلكون الجهال وبجهلهم هذا سيكونون مجرد وكلاء عميان للنيتوقراطية وليس لهم من حاجات سوى الحاجات الاساسية (حاجات البقاء والنماء بحسب ماسلو)

.

أما المستوى الثاني من الهرم فمادته شريحة اخرى من الناس الاقل عدداً والافضل نوعاً وهم "الانتباهيون" الذين سيدخلون شبكة النخبة نتيجة ذكائهم واستباقهم وتفردهم في تقديم معلومة تستحق الانتباه لقيمتها الاستثمارية الاخرى في بناء وديمومة الشبكات بغض النظر عن مثاليتها واخلاقيتها وقيمتها، فالنيتوقراطية ترفض جمود او مثالية القيم والاخلاق وهي بذلك تتحدى القوانين والانظمة والاخلاق سواء كان مصدرها ارضياً ام سماوياً، اذ هي تستند إلى الفلسفة البراغماتية وتحدد نسبية الاشياء منفعياً، حتى سلطة العقاب النيتوقراطية هي سلطة ميتاديموقراطية فالمخالف لقوانين وانظمة واخلاقيات النيتوقراطية

(غير مكتوبة وانما هي بمثابة عرف عولمي) سيُحرم من عضوية الشبكة،ولكن سيكون دائماً هناك فرص له بالدخول في شبكات جديدة كلما استطاع ان يقدم معلومة انتباهية جديدة او باحتمال تقديم الجديد منها، فالخطأ لا يلازم صاحبه لان الفرد ليس لصيقاً ثابتاً بآنيته، انه ابن كل لحظة وهو ابن الوجود اللحظوي والمتوقع المستقبلي، وبهذا يتم تقييمه ولا دخل لاي لحظة سابقة في اصدار الاحكام الحاضرة، فهو ليس اكثر من رمز رقمي في نظام شبكي عولمي.

اما المستوى الثالث من الهرم وهو قمته فيتمثل بالنيتوقراط وهم رؤساء الشبكات الرئيسة المسيطرون (Curators) الذين يعملون على اجتذاب اعضاء اكثر من الانتباهيين، والدخول في تحالفات مفيدة، وانتاج كل منهم لمعلومات مهمة ترتفع بمكانة شبكتهم، وسيحل هؤلاء محل الدولة في كثير من الوظائف فهم "العين الحارسة " للنظام النيتوقراطي والمحافظة على استدامته عبرالزمن.

قد يتساءل البعض من هؤلاء الشخوص؟ اهم المالكون مالياً واداريا للشركات التي تدير الشبكات المعلوماتية؟ والجواب هو: طبعاً لا، لان هؤلاء بشر فانون، اما النيتوقراط فهم ازليون، متحولون، سيبرناطيقيون، وحركيون (Mobilism) انهم التجسيد المادي التاريخي الديالكتيكي للفلسفة الماسنيتوقراطية (المقطع الاول مختصر Master اي استاذ) والمقصود استاذ النيتوقراطية وهو بذلك مهندس المستقبل،او بمعنى اوضح النظام المهندس للمستقبل. كل هذا ليس حلماً ورديا ولا كابوساً مزعجاً، انه قراءة ميتانقدية لكتاب "النيتوقراطية، نخبة القوة الجديدة وحياة ما بعد الرأسمالية " لمؤلفيه بيرد وسودير اللذين اثارا نقاطاً مهمة في نقد وتفسير حاضر العالم ومستقبله في ضوء ثورة الاتصالات ومتطلبات التعامل الكفء مع المستقبل القادم، الا انهما عجزا عن تقديم تبرير في ضوء الفلسفات والرؤى الميتاحداثوية من توضيح الآثار الاجتماعية والسياسية المتوقعة نتيجة لثورة تكنلوجيا المعلومات، والمقال هنا محاولة لمراقبة نقد العصر القادم بآلية ميتانقدية.

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:

١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .

٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@ yahoo.com